بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ٨ شَعْبَانَ ١٤٤٦هـ

عِبَادَ اللهِ: اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَرَاقِبُوهُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ، وَاذْكُرُوا نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ نِعَمَهُ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ، وَمِنَنَهُ وَآلَاءَهُ لَا تُسْتَقْصَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، وَرُؤُوسُ النِّعَمِ الْإِسْلَامُ؛ الَّذِي لَا تَتِمُّ نِعْمَةٌ إِلَّا بِهِ، وَالْعَافِيَةُ الَّتِي لَا تَطِيبُ الْحَيَاةُ إِلَّا بِهَا، وَالْمَالُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ الْعَيْشُ إِلَّا بِهِ، وَالْأَمْنُ الَّذِي لَا تَنْتَظِمُ الْمَصَالِحُ إِلَّا بِهِ، فَمَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًىٰ فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا أُوتِيَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللهَ ﷻ امْتَنَّ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِإِسْبَاغِهِ النِّعَمَ، وَمُوَالَاتِهِ الْمِنَنَ، وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، فَيَا عَبْدَ اللهِ: اذْكُرْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْكَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَكُنْ دَوْمًا مُسْتَعْمِلًا لَهَا فِي مَرَاضِيهِ، مُجَانِبًا اسْتِعْمَالَهَا فِي مَسَاخِطِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

عِبَادَ اللهِ: إِذَا كَانَ الْعَبْدُ عَلَىٰ ذِكْرٍ لِإِسْبَاغِ اللهِ ﷻ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، فَلْيَكُنْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَىٰ ذِكْرٍ بِأَنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْآثَامَ وَالْمَعَاصِيَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، فَلَا يَلِيقُ بِعَبْدٍ أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ أَنْ يُقَابِلَ ذَلِكَ بِعِصْيَانِ الْمُنْعِمِ جَلَّ فِي عُلَاهُ بِالْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ حَذَرٍ تَامٍّ، وَمُجَانَبَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِلذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، مُجَاهِدًا نَفْسَهُ، مُسْتَعِينًا بِرَبِّهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مِمَّا يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مُجَانَبَةِ الذُّنُوبِ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا أُمُورًا، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنْ يُذَكِّرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِنِعَمِ اللهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ عَلَيْهِ، وَلْيَقُلْ لِنَفْسِهِ: يَا نَفْسُ لَا يَلِيقُ بِكِ وَقَدْ وَالَىٰ اللهُ عَلَيْكِ النِّعَمَ، وَمَنَّ عَلَيْكِ بِالْمِنَنِ، أَنْ تُقَابِلِي نِعْمَةَ اللهِ بِالْعِصْيَانِ، وَمُبَارَزَتِهِ بِالْآثَامِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

الثَّانِي: أَنْ يَذَّكَّرَ أَنَّ الْمُنْعِمَ عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعَمِ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ كُلِّهَا، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ خَافِيَةٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، فَالْكُلُّ عِنْدَ اللهِ سَوَاءٌ؛ يَرَىٰ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، وَيَطَّلِعُ عَلَىٰ أَحْوَالِهِمْ، وَيُبْصِرُ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، فَلَا تُوَارِي مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا، وَلَا يَحْجُبُ عَنْهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ ظَاهِرٌ بَاطِنًا، فَالْبَاطِنُ عِنْدَهُ جَلَّ وَعَلَا ظَاهِرٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَالْغَيْبُ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَذْكُرَ الْعَبْدُ أَنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، مُحْصَىٰ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾، فَلَا يَلِيقُ بِعَبْدٍ يُدْرِكُ أَنَّ الْأَعْمَالَ مُحْصَاةٌ، وَأَنَّ الدَّيَّانَ لَا يَنَامُ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَبْقَىٰ سَادِرًا فِي غَيِّهِ، مُسْتَمِرًّا فِي عِصْيَانِهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَعَلَىٰ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْمُقَامِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ حَذَرٍ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، لَا أَنْ يَكُونَ مُحَاذِرًا لِلذُّنُوبِ الْمُشَاهَدَةِ الظَّاهِرَةِ، وَاقِعًا فِي الذُّنُوبِ الْبَاطِنَةِ الْخَفِيَّةِ؛ إِذَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ تَذَكَّرْ أَنَّ عَلَيْكَ رَقِيبًا مُطَّلِعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عِبَادَ اللهِ: لَيْسَتِ الذُّنُوبُ مُنْحَصِرَةً فِي مَعَاصٍ تَظْهَرُ، بَلْ كَمْ مِنَ الذُّنُوبِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي يُبْتَلَىٰ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَرُبَّمَا لَا يَشْعُرُ بِوُقُوعِهِ فِيهَا، وَقَلْبُهُ مُتَلَوِّثٌ بِهَا، مِنْ آثَامِ الْقُلُوبِ الْمُتَنَوِّعَةِ، كَالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعُزُومِ الْبَاطِلَةِ، وَالنَّوَايَا السَّيِّئَةِ، وَآفَاتِ الْقُلُوبِ وَأَمْرَاضِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ. فَعَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُجَاهِدًا نَفْسَهُ

عَلَىٰ صَلَاحِهَا وَسَلَامَتِهَا مِنَ الْآثَامِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلْيُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ وَقَعَ مِنْهُ سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً، فِي قَدِيمٍ أَوْ حَدِيثٍ، سَوَاءٌ كَانَ دَقِيقًا أَوْ جَلِيلًا، فَلْيُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلْيُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ مَوْلَاهُ مِنْ كُلِّ ذُنُوبِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، **وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ**، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَرَاقِبُوهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، مُرَاقَبَةَ عَبْدٍ يَعْلَمُ أَنَّ رَبَّهُ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ. وَاعْلَمُوا رَعَاكُمُ اللهُ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا هِيَ خَيْرُ زَادٍ يُبَلِّغُ الْعَبْدَ إِلَىٰ رُضْوَانِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وَتَقْوَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللهِ، عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ، وَتَرْكٌ لِمَعْصِيَةِ اللهِ، عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، خِيفَةَ عَذَابِ اللهِ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾.

عِبَادَ اللهِ: وَلِهَذِهِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ آثَارٌ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: تَنَكُّرُ الْأَرْضِ وَالنَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ لِلْمُذْنِبِ: قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «زَادِ الْمَعَادِ»: قَوْلُهُ: «حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ لِيَ الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالَّتِي أَعْرِفُ»: هَذَا التَّنَكُّرُ يَجِدُهُ الْخَائِفُ وَالْحَزِينُ وَالْمَهْمُومُ فِي الْأَرْضِ، وَفِي الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ، حَتَّىٰ يَجِدَهُ فِيمَنْ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَجِدُهُ أَيْضًا الْمُذْنِبُ الْعَاصِي بِحَسَبِ جُرْمِهِ، حَتَّىٰ فِي خُلُقِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، وَخَادِمِهِ وَدَابَّتِهِ، وَيَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ أَيْضًا، فَتَتَنَكَّرُ لَهُ نَفْسُهُ حَتَّىٰ مَا كَأَنَّهُ هُوَ، وَلَا كَأَنَّ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَمَنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِ بِالَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ، وَهَذَا سِرٌّ مِنَ اللهِ لَا

يَخْفَىٰ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ هُوَ مَيِّتُ الْقَلْبِ، وَعَلَىٰ حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ يَكُونُ إِدْرَاكُ هَذَا التَّنَكُّرِ وَالْوَحْشَةِ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ.

الثَّانِي: الْمَعَاصِي تُوجِبُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ، وَالْخَوْفَ وَالْحُزْنَ، وَضِيقَ الصَّدْرِ: قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمَصْدَرِ السَّابِقِ»: الْمَعَاصِي تُوجِبُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ، وَالْخَوْفَ وَالْحُزْنَ، وَضِيقَ الصَّدْرِ، وَأَمْرَاضَ الْقَلْبِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَهَا إِذَا قَضَوْا مِنْهَا أَوْطَارَهُمْ، وَسَئِمَتْهَا نُفُوسُهُمْ، ارْتَكَبُوهَا دَفْعًا لِمَا يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الضِّيقِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْفُسُوقِ [يَعْنِي: الْأَعْشَىٰ]:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ ... وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَإِذَا كَانَ هَذَا تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ فِي الْقُلُوبِ، فَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

الثَّالِثُ: صَاحِبُ الْبَصِيرَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ نَظَرَ إِلَىٰ أُمُورٍ تُحْدِثُ لَهُ مَعْرِفَةَ اللهِ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»: اعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الْبَصِيرَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ فَلَهُ نَظَرٌ إِلَىٰ خَمْسَةِ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ بِكَوْنِهَا خَطِيئَةً، وَالْإِقْرَارَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالذَّنْبِ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَيُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ خَوْفًا وَخَشْيَةً، تَحْمِلُهُ عَلَىٰ التَّوْبَةِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ تَمْكِينِ اللهِ لَهُ مِنْهَا، وَتَخْلِيَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَتَقْدِيرِهَا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهَا، فَيُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَتُوجِبُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ عُبُودِيَّةً بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَا تَحْصُلُ بِدُونِ لَوَازِمِهَا الْبَتَّةَ.

الرابع: أَنْ يَعْرِفَ بِرَّهُ سُبْحَانَهُ فِي سَتْرِهِ عَلَيْهِ حَالَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، مَعَ كَمَالِ رُؤْيَتِهِ لَهُ، وَلَوْ شَاءَ لَفَضَحَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوهُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ بِرِّهِ.